المفكر العربي الدكتور/ عاصم الدسوقي في حوار شامل لـ «الثورة»:

الغرب سبب تخلفنا ومصيبتنا في المثقفين الأبواق

العرب تمزقوا بين مشاريع دينية وليبرالية واشتراكية مع غياب الأساس الاقتصادي والاجتماعي لهذه المشاريع

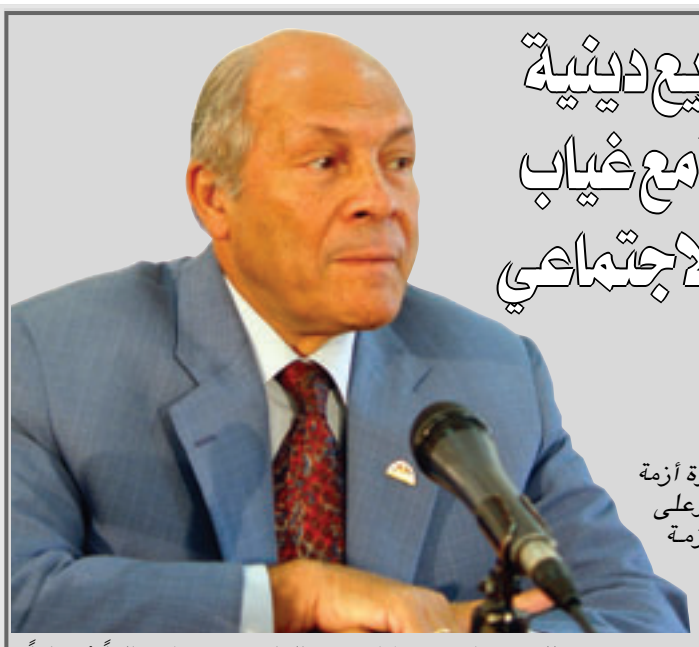

■ .. قال إن بداية التفكك العربي بدأت من إدارة أزمة الصراع العربي – الاسرائيلي، وأن الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية هو سبب أزمة العرب الراهنة، وأن النفط كان لعنة على المنطقة، وأن السياسة الغربية تقضي بأن يكون النفط للغرب وللعرب الرمال، وأن مصيبة العرب تكمن في زمرة المثقفين الذين تحولوا الى أبواق دعاية للحكومات، وأن تمزقنا ناشئ عن تمزق المثقفين والسياسيين في تيارات دينية وليبرالية واشتراكية مع غياب الأساس الاقتصادي والاجتماعي لهذه المشاريع المختلفة.

موضحاً أن على المثقف أن يشيع أفكار التنوير ولو في المقهى وأن المثقف الذي يدفع الثمن يضع اللبنة الأولى في التطور والتنمية.

هذه الأفكار وغيرها كثير في هذا الحوار الذي أجريناه مع الأستاذ الدكتور/ عاصم الدسوقي على هامش زيارته لبلادنا مؤخراً ضمن الوفد الثقافي المصري الذي شارك في فعاليات صنعاء الثقافية، والدسوقي واحد من أبرز المفكرين المعاصرين في مصر الذين لهم رؤيتهم الخاصة وينظرون للمستقبل من خلال محك التاريخ، ويعمل حالياً أستاذاً للتاريخ في جامعة حلوان بمصر وعضواً في المجلس القومي المصري، وعضواً في المجلس الأعلى للثقافة، وله العديد من الكتابات في المجلات والصحف المختلفة، كما صدر له الكثير من المؤلفات من أبرزها نذكر ما يلي: ليلة اعتراف أمريكا باسرائيل – تاريخ العرب المعاصر – الوحدة والتفكك العربي – أوروبا العثمانية – نحو فهم تاريخ مصر الاقتصادي الاجتماعي – مجتمع علماء الأزهر – المجتمع المصري في الحرب العالمية الثانية – مدخل لفهم ثورة ٢٣ يوليو – كبار ملاك الأراضي ودورهم في المجتمع المصري، وغيرها من الكتب والمؤلفات، وفيما يلي نص الحوار المثير الذي أجريناه معه في هدأة ليل صنعاني مليء بالدهشة والجمال :

حاوره/ علي ربيع

بداية الأزمة

● الحال العربية المأزومة الراهنة.. كيف تقيمها؟ وماهي أبرز ملامح هذه الأزمة؟!

– مظاهر الأزمة موجودة وهي ظاهرة في التفكك العربي على الرغم مما يبدو على السطح من مظاهر الألفة والتعاون، لكن في حقيقة الأمر الأمة العربية مفككة والسبب في هذا يعود في تقديري الى نجاح الغرب الأوروبي – الأمريكي في إيصال العرب الى حالة التفكك لعلمهم التام أن العرب كوحدة يشكلون مصدر خطورة على مصالحهم، لأن كل مصالح الغرب الرأسمالي توجد في هذه المنطقة منذ القرن التاسع عشر، وهم لن ينسوا أنهم كانوا مسيطرين على هذه البلاد واحدة إثر واحدة طوال قرنين من الزمان تقريباً عن طريق الاستعمار العسكري، وبعد قيام الحركات الوطنية في كل البلاد العربية وتحقيق الاستقلال بدأ الاستعمار الاقتصادي عن طريق سيطرة رأس المال والشركات.. الخ، إضافة الى أنه في الفترة من الخمسينيات الى الستينيات كانت الاشتراكية قد سادت في بعض بلاد المنطقة العربية فزاد هذا من خوف الغرب الأمريكي – الأوروبي على مصالحه الاستراتيجية في المنطقة.

والحقيقة أن بداية التفكك العربي بدأت من ادارة أزمة الصراع العربي – الاسرائيلي، نحن نعلم أن الصراع فحواه كالآتي:

اليهود جاءوا واستوطنوا في هذه البلاد وهذه حقيقة لا جدال فيها وأعلنوا دولتهم بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية، والأمم المتحدة، فأصبح المشروع العربي المواجه للمشروع اليهودي – الاسرائيلي أن هؤلاء اليهود جاءوا من البحر فليعودوا من حيث أتوا، واسرائيل مشروعها يقوم على أنها دولة معترف بها دولياً ويجب أن يعترف بها العرب، أما مسار الأزمة بعد ١٩٤٨م، فبدأ بإقامة هدنة «رودس» في ١٩٤٩م، على أساس أنها توطئة لتوقيع اتفاق سلام دائم ونهائي في الشرق الأوسط، وبعدها في سنة ١٩٥٠م صدر تصريح دبلوماسي مشهور مابين أمريكا وفرنسا وانجلترا بحفظ التوازن في الشرق الأوسط، ومعنى حفظ التوازن أي لصالح اسرائيل، والعرب من جانبهم اجتمعوا وأقروا اتفاقية دفاع مشترك واتفقوا على عدم اعتراف أي دولة بإسرائيل، ثم تغير الموقف والأبعاد بعد قيام ثورة ١٩٥٢م، لأن جمال عبدالناصر رفع مستوى القضية الفلسطينية من مستوى شعب لاجئ الى مستوى شعب له دولة مغتصبة.. الخ، والطرح الذي قدمه جمال عبدالناصر لم يكن مقبولاً من الغرب لأنهم يريدون منه قبول اسرائيل، فاستخدموا سلاح المعاونات العسكرية والاقتصادية ومن ضمنها مشروع السد العالي الى آخر هذه الأمور، ولكنهم فشلوا وجاءت الضربة القاصمة في يونيو ١٩٦٧م بالعدوان المشهور، بعد ذلك تم التقاط مصر من قلب المجموعة العربية في عهد السادات، وبدأت حرب ١٩٧٣م في اطار التسوية وعقدت معاهدة ١٩٧٩م، وهنا نجح المشروع الأمريكي في اخراج مصر من العروبة، والسياسية الأمريكية كانت تهتم بمصر لأنها مفتاح المنطقة والأسباب كثيرة ومعروفة، ودخلت مصر في معاهدة ١٩٧٩م وانسحبت رغم الادعاء بأنها لم تنسحب، انما تحولت الى دولة خارجية مثل أي دولة في آسيا وأوروبا لتشجب العدوان الاسرائيلي، على الشعب الفلسطيني وتطالب بالسلام وبالعدل وتنفيذ خارطة الأمم المتحدة.. الخ.

الجغرافيا السياسية

● باختصار.. أنت تضعنا أمام ملخص مفيد يقول: إن سبب الأزمة العربية هو تآمر الغرب على الأمة العربية منذ الاستعمار وحتى الآن؟!

– نعم وأيضاً استجابة العرب لهذا التآمر، وهو ما يحول دون أي تقارب عربي.

● هذا يدعونا لنتساءل ما الذي جعل دولاً أخرى مثل: ماليزيا – على سبيل المثال – وهي أثنيات مختلفة وأديان شتى وعدد سكان قليل تحقق طفرة ناجحة في إثبات الذات بالرغم من استقلالها قبل الدول العربية بفترة قليلة وهو ما لم تحققه أي دولة عربية؟!

– هنا يبرز دور الجغرافيا السياسية، وهو مهم جداً ودائما ما يعقد المثقف العربي مقارنة بين ما حدث لليابان، وما حدث لألمانيا، فقد هزمتا ولكنهما نهضتا الفرق هنا ناتج عن ما نسميه الجغرافيا السياسية، الشرق الأقصى بعيد عن المصالح الاستراتيجية الأوروبية – الأمريكية المتركزة في الشرق الأوسط وفي القلب مصر لأنها عقدة المواصلات، وكما كانت تمثل أمريكا الجنوبية «الباك يارد» أو الحديقة الخلفية للغرب فإن الشرق الأوسط يمثل لهم السوق.

ومنطقة الشرق الأوسط تمتاز جغرافيا أنها بين المدارين ومثل هذه المناطق تكون متعددة الغلات وثرية جداً، ومن هنا من يكون في الشرق الأوسط يكون قريباً من الشرق الأقصى وقريباً من عمق أفريقيا وقريباً من أوروبا لذلك نستطيع القول أن هذا الموقع جنى على أهله.

لعنة النفط!!

● بمعنى آخر نستطيع القول أن النفط العربي كان لعنة على العرب؟!

– بالضبط.. لأن النفط شريان حيوي، فمثلاً في حرب ١٩٧٣م لما استخدم العرب سلاح النفط، كانت السياسة الأمريكية تقول نحن سنسعى لتغيير أسلوب نمط الانتاج الصناعي بحيث نبحث عن طاقة بديلة ونجعل العرب يشربون النفط لكن التهديد لم ينجح لأنه لتحقيق ذلك فستعيد إنتاج آلات جديدة، فضلاً عن دخول مشتقات النفط في كثير من الصناعات عدا كونه مصدراً للطاقة.

ثم قامت الحرب العراقية -الايرانية سنة ١٩٨٠م، وقالت أمريكا على لسان «كسينجر» نحن لا يهمنا من هذه الحرب شيء إلا اذا تهددت منابع النفط، لأن الخليج ما هو إلا نفط ورمال، لنا النفط وللعرب الرمال، وهذا يؤكد أن اهتمامهم كان سببه الرئيسي النفط، فالنفط أيضاً جنى على هذه المنطقة، لأن الذين استخرجوه، عقدوا اتفاقات مع حكومات المنطقة واضعين شروط الاستغلال، وبالتالي أصبحت أنت مجرد مصدر للمادة الخام، يوازي القطن في مصر والكاكاو في أفريقيا، وهذا المغزى البعيد يرمي لكي يظل الشرق الأوسط سوقاً لتصريف الانتاج الزائد عندهم واستيراد المادة الخام، بسعر بسيط ووصل بهم الأمر أنهم يقيمون مشروعات داخل هذه البلاد لأن العمالة رخيصة.

طبقات المثقفين

● نخرج قليلاً من السياسة الى المثقف العربي، أين يكمن دور المثقف العربي من هذه الأزمة، بمعنى آخر.. أين هو المثقف العربي الآن من كل ذلك؟!

– أزمة المثقف العربي واضحة جداً، أولاً المثقفون ليسوا طبقة اجتماعية، هم من طبقات مختلفة، ولكن عادة في كل بلد المثقفون ينقسمون الى ثلاثة أقسام: قسم مع الحكومة ومهمته إضفاء الشرعية على إجراءات الحكومة وينتفع من وراء ذلك، وقسم آخر ضد الحكومة ودائم الانتقاد لها، ويدفع ثمن ذلك من التهميش أو الحبس في السجون أو المعتقلات وقسم في الوسط يبحث عن طريق، وهنا أحد أسباب مصائب بلادنا العربية.

ثلاثة روافد مزقتنا

● بين أيدينا كثير من المشاريع التنويرية لمفكرين عرب وهم كثر، أين هي تلك المشاريع وهل ستكون جدواها لاحقاً حين تحين الفرصة.. أم أنها مجرد طفرة ترف ظهرت لتموت؟!

– في وقت لاحق اذا حصل تحقيق جزء من هذا المشروع أو ذاك سيتم استعراض جهود هؤلاء الناس في تاريخ الفكر وهناك الكثير من المثقفين الذين وضعوا مشروعات خاصة بالتنمية والانتماء وهل أنت عربي أو اسلامي.

● لكن ألا ترى أن انقسام الانسان العربي عبر مشاريع مختلفة ومتباينة أحياناً حيث دعاوي القومية والعروبة والاسلامية واليسارية والليبرالية.. الخ قد أحدث شرخاً كبيراً في الرؤية من أجل الخروج الى بر الأمان؟!

– طبيعي.. وهذه نقطة مهمة سببها التثاقف مع الغرب، حين اتصلنا بالغرب عن طريق التعليم والبعثات، حيث بدأت ترد الى البيئة العربية روافد ثقافية خارجة عن البيئة الى حد ما، فالثقافة في بلادنا – وهذا حقيقي – ثقافة دينية، هذه الثقافة كانت الجامع المشترك بين الجميع ولكنها بدأت تتعرض للاختراق، من خلال المثقفين الذين أطلوا على الغرب ، فمنذ القرن التاسع عشر فيما يسمى مشروع النهضة.. هو مشروع ليبرالي، لأن الثقافة التي أطل عليها العرب – الطهطاوي وغيره – هي ثقافة ليبرالية، ولكن أساسها الاجتماعي والاقتصادي عندنا غير موجود، فأفرز ذلك نوعاً من التطرف الفكري لهؤلاء، ولما ظهرت الماركسية في أوروبا واعتنقها بعض المثقفين العرب مسلمين ومسيحيين أيضاً بشروا بالاشتراكية كحل لمشكلة الفقر الموجودة في المجتمع، لكن الذي حارب هذا التيار هي الصفوة الحاكمة واستندوا في ذلك الى قوى الغرب التي كانت تحتل هذه البلاد، لكن التيار كان موجوداً وأصبح يمثل سياسة حتى قامت ثورة يوليو مع جمال عبدالناصر الذي بدأ يأخذ بالتخطيط المركزي والعدل الاجتماعي، وانتقلت هذه السياسات الى الثورات أو الحكومات الوطنية التي اعتلت الحكم في نفس الفترة مثل: سوريا ، العراق، ليبيا، الجزائر، تونس.

وأصبح هناك ثلاثة روافد، رافد ديني، ورافد ليبرالي، ورافد اشتراكي، ومن هنا وجد التمزق بين المثقفين وبين السياسيين الذين اعتنق بعضهم هذا التيار أو ذاك، وفي الوقت نفسه نجد أن هذه المشروعات ليس لها أساس اقتصادي – اجتماعي وهذه هي المشكلة، لأن الفكرة بنت ظرف اجتماعي – اقتصادي ولا يمكن الحصول على تطبيق الفكرة دون وجود الظرف.

أفكار مستزرعة

● تصل نسبة الأمية في الوطن العربي الى معدلات عالية جداً رغم أننا في القرن الواحد والعشرين، ما الأثر الذي جلبه ذلك على واقع الأمة العربية اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً؟!

– الأمية مرض خطير جداً ويهدد عملية التنمية لأنه يسحب معه قطاعات كبيرة من المجتمع لا تتجاوب مع السياسة القائمة ولا تفهم حقوقها نحو المستقبل، وفيما يبدو أن الحكومات القائمة ترحب كثيراً ببقاء الأمية إن لم تزد نسبتها، لأن ادارة شعب جاهل وأمي أسهل من حكم شعب متعلم يناطح السلطة ويبصرها بالحق والواجب، مع العلم أن هذه الحكومات والحكام يطلبون منك أن تؤمن برجاحة عقلهم وتفكيرهم، وبالتالي القبول بآرائهم دون مناقشة.

● نؤرخ لعصر النهضة العربية ببداية الحملة الفرنسية بقيادة نابليون على مصر عام ١٧٩٨م، ما الذي تحقق منذ ذلك التاريخ حتى الآن من هذه النهضة التي ندعيها؟

– هناك أشياء تحققت ولكن لم تتحقق بشكل كاف أو كامل، بسبب أن هذه الأفكار مستزرعة دون وجود نمو اقتصادي – اجتماعي يساعد هذه الأفكار.

ولنأخذ مثالاً آخر وهو تحرير المرأة فقد أخذ لدينا أولاً الشكل وهو السفور ونزع الحجاب، لكن لم يأخذ الاندماج الحقيقي داخل المجتمع.. إضافة الى مشكلة أخرى جاءت الى عالمنا العربي مع ثروة النفط، وهي حقائق يجب أن تقال، فمصر التي بدأت لديها النهضة من بداية القرن التاسع عشر عندما دشنت الثروة النفطية بعد استقلال الكويت عام ١٩٦١م، وبقية دول الخليج عام ١٩٧١م.

جرس الإنذار

● الواقع العربي واقع ملغوم بالكثير من القضايا والاشكالات.. كيف يمكن أن يقوم المثقف بدوره في ظل هذا الحال؟ وهل يمكن معرفة دوره تحديداً؟!

– المثقف بمثابة جرس الإنذار، لابد أن ينبه، وهذه هي مهمته، لابد أن يستخدم ما تعلمه من فلسفته ورؤاه للأشياء واطلاعه على تجارب الشعوب وتاريخ أمته، لابد أن يدق جرس الإنذار، يقول هذا الإجراء سيكون له تداعيات خطيرة، كذا وكذا.. لأن دراسة التاريخ هنا وإن كان يدرس الماضي، إلا أنه علم قراءة المستقبل، فهو يأخذ من الماضي عبره وأحداثه وينبه إلى مثلها.

وعلى المثقف أن يشيع هذه الأفكار ولو في المقهى، وعليه إن تبنى مثل هذا المشروع أن يجعل في حسبانه أنه سيصبح مهمشاً إن لم يكن سبيله النفي أو الاعتقال، لكن في كل الأحوال المثقف المتمرد الذي يدفع الثمن هو بذلك يضع اللبنة الأولى في التطور والتنمية.

من مصلحة الغرب ألا نكون ديمقراطيين

● كأنك تريد أن تقول أن المثقف العربي ليس لديه استعداد لأن يضحي ويدفع الثمن؟!

– بالضبط.. هو يجيد الحديث وشقشقة اللسان، لكن في الوقت المناسب يدير ظهره.

● هناك ضغوط متزايدة على العالم العربي لقبول بعض مشاريع التغيير القادمة من الغرب، في تصوركم هل ستقبل بها سياسات المجتمعات العربية؟

– موضوع الإصلاح الديمقراطي الذي تنادي به الولايات المتحدة الأمريكية هو موضوع مقحم على الصراع، والولايات المتحدة أو الغرب الاستعماري – الذي يجب ألا ننسى بأنه استعماري وإن لم يكن مستعمراً الآن – لا يؤمن بالديمقراطية في المستعمرات حتى ولو أصبحت دولاً مستقلة، لأنه يعلم أن الديمقراطية في بلاده تجعل من الرئيس مجرد ممثل يوقع على قرارات قادمة من الهيئة التشريعية التي تمثل صفوة رأس المال أو ملاك المصالح. أما في البلاد النامية فمن مصلحتهم أن يكون الحاكم غير ديمقراطي والنظام غير ديمقراطي لضمان سهولة قضاء المصالح عن طريق الحديث مع الحاكم مباشرة، ولن يحتاج لعرض الموضوع على أجهزة تشريعية حتى يحدث جدل ومناوشات ونوافق أو لا نوافق، وما يطرح الآن من طروحات حول الديمقراطية رغم أن الغرب يعلم أنها تخالف مصالحه مجرد لعبة اختراق السلطة الحاكمة، عن طريق إلقاء ورقة الديمقراطية التي تتلقفها المعارضة التي ستدعم من قبل أمريكا، ومن ثم خلق أنظمة أكثر تبعية للولايات المتحدة الأمريكية التي ستعمل على حماية هذه الأنظمة من شعوبها.

الخروج من الأزمة

● قد نصل الى جلد الذات ونكون متشائمين أكثر فأكثر، لكن مع ذلك ألا ترى هناك من بارقة أو بصيص من الأمل لخروج العرب من مأزقهم الحضاري الراهن وانقشاع هذه الغمة؟!

– يمكن أن تنقشع هذه الغمة عندما يؤمن الحكام العرب كل في بلده أن مصيرهم مرهون بإرادة الشعب، وأنه من الأفضل لهم توسيع دائرة المشاركة لكل قوى المعارضة السياسية، وهناك قانون، فالبلاد الديمقراطية، كما هو في الولايات المتحدة لا فرق لدى أحزابها في السياسة الخارجية لأنها مصالح استراتيجية والخلاف في السياسة الداخلية حول رفع الضرائب أو خفض الضرائب ومن ثم فمن غير المعقول أن تفكر قوى المعارضة من أجل تدمير نفسها ولكنها ستدعم الحاكم، ولنأخذ درساً من العراق حيث لم ينجح النظام السابق في إقامة نص وطني شامل، وهو المدخل الذي دخلت منه الولايات المتحدة الأمريكية، فالحل إذن في استيعاب قوى المعارضة، والكل في وطنيتهم سواءٌ والإنسان يشعر بوطنيته حين يدرك أن أفكاره وآراءه تجد صدى، والتالي سيكون لديه المزيد من الاجتهاد للوطن.

● في الوقت الذي يرفع مفكرو الغرب وعلى رأسهم هنتنغتون مثلاً شعار صدام الحضارات ترتفع في عالمنا العربي والإسلامي عموماً أصوات خائفة تنادي بحوار الحضارات.. هذه المفارقة ماذا تعني غير الهروب؟!

– طبعاً.. هذا عجز، فعدوك يعلن صدام حضارات وبوش يصرح أنها حرب صليبية، وأنت تقول حوار حضارات، ولا يكون الحوار بين نقيضين وهو شيء بشع جداً، وكان المفترض أن تكشف حقيقة الخطاب الأمريكي في هذا الموضوع وأنه يعود مرة أخرى الى الاستعمار القديم عن طريق القوة العسكرية، وعادة فالذي يقول بالحوار هو لا يملك أوراق القوة.

▫ على المثقف أن يشيع أفكاره ولو في المقهى وأن يترقب النفي أو التهميش أو الاعتقال

▫ المثقف الذي يدفع الثمن يضع اللبنة الأولى في طريق التطور والتغيير

▫ المثقف العربي يجيد الحديث وشقشقة اللسان وفي الوقت المناسب يدير ظهره ويهرب من تقديم التضحيات

▫ علينا أخذ الدرس من العراق وعلى الأنظمة توسيع دائرة المشاركة